العدد الثالث والعشرون
2006

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1374 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2006 مسيحي

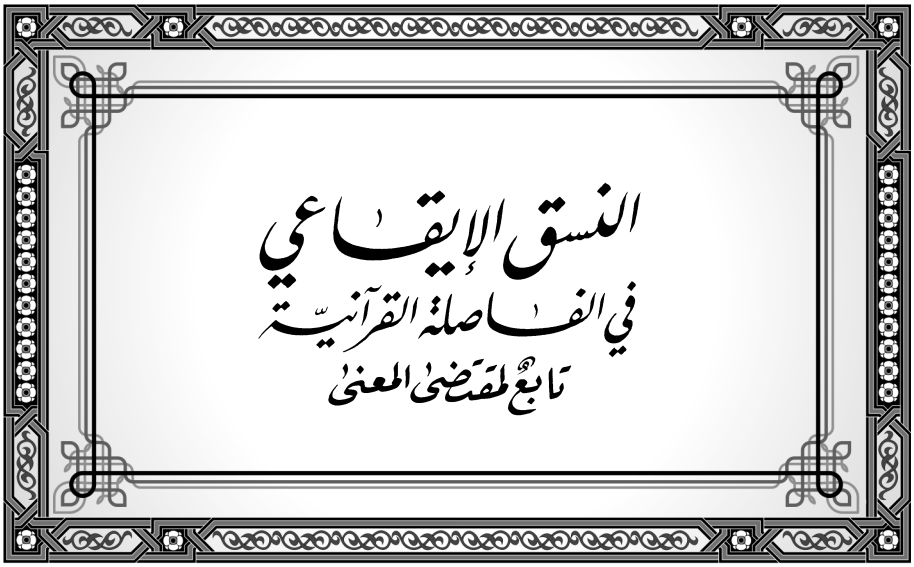

د. جاسم محمّد سهيل
المعهد العالي لإعداد المعلمين - العزيزية

لعل من الظواهر البارزة التي جاء عليها نظم القرآن هو التزام الفاصلة في جميع آياته التزاماً مطرداً لا تتخلفُ أبداً.

وقد أوليت هذه الظاهرة عناية فائقة من قبل العلماء القدامى والدارسين المحدثين. ولعلّ الذي يلفت النظر أن بعض العلماء من القدماء[1] ذكروا أربعين موضعاً أو يزيد روعيت فيها الفاصلة القرآنية بغض النظر عن المعنى أو السياق الذي وردت فيه. وتابعهم في ذلك بعض المحدثين[2] يقول الدكتور تمام

(1) انظر على سبيل المثال: الإتقان في علوم القرآن 2/ 946 ـ 952، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن 1/ 26 ـ 31.

(2) انظر على سبيل المثال: فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم 219 ـ 223، ومن أسرار التعبير في القرآن 22 ـ 36، وفواصل الآيات القرآنية 93 ـ 105.

حسان: إن للفاصلة «قيمة صوتية ذات وظيفة مهمة تراعى في كثير من آيات القرآن، وربما أدت رعايتها إلى تقديم عنصر أو تأخيره من عناصر الجملة. . أما في القرآن الكريم فإن أحد الأسباب يمكن أن يوصف بأنه رعاية الفاصلة»[3].

ونحن لا ننكر أن القرآن يُعنى بالنسق الإيقاعي في الفاصلة القرآنية إلا أن هذه العناية تأتي تابعة للمعنى، أي: إن المعنى أو السياق هو الذي يتطلب هذه الفاصلة، وهي وظيفة واحدة من وظائف الفاصلة القرآنية، وهذا يعني إن هناك وظائف أخرى بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام»[4].

وقبل البدء بعرض وتحليل بعض الآيات القرآنية، والتي تبيّن أنّ النسق الإيقاعي في الفاصلة القرآنية جاء تابعاً لمقتضى المعنى لا بد من بيان معاني المصطلحات التي وردت في عنوان البحث وهي: النسق، والإيقاع والمقتضى، والمعنى، والفاصلة.

فالنسق هو ما جاء من الكلام على نظام واحد[5] والإيقاع في اللغة معناه اتفاق الصوت في الغناء، قال ابن منظور: «هو من إيقاع اللحن والغناء وهو أن يوقع الألحان ويبينها»[6]. ونعني به في البحث إحساس الأذن والنفس بتناغم الصوت الحاصل من قراءة الآيات[7]. وقد حاول الدكتور تمام حسان أن يبيِّن معنى الإيقاع عن طريق شرح المقاطع اللغوية والنبر، وانتهى فيه إلى أن الإيقاع، إما إيقاع في نطاق التوازن وإما في نطاق الموزون، والوزن في العربية إنما يكون للشعر، والذي في القرآن متوازن لا موزون[8].

والمقتضى هو «ما لا صحة له إلا بإدراج شيء آخر ضرورة صحة كلامه»[9].

---

(3) البيان في روافع القرآن دراسة أسلوبية للنص القرآني 1/ 198.
(4) البرهان في علوم القرآن 1/ 54.
(5) لسان العرب، مادة (نسق) 10/ 353.
(6) المصدر نفسه مادة (وقع) 8/ 408.
(7) فواصل الآيات القرآنية 166.
(8) البيان في روائع القرآن 1/ 269.
(9) التعريفات 289.

أما المعنى فهو المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة[10] أو هو «التعبير باللفظ عما يتصوره الذهن، أو هو الصورة الذهنية من حيث تقصد من اللفظ»[11] ومعنى كل كلام مقصده ولذلك لا معنى من غير غاية أو غرض أو هدف، وهذا يعني ارتباط المعنى برسالة إنسانية[12] ويطلق على دراسى المعنى الدلالة[13] أي إنَّ الدلالة في الدراسات العربية مرتبطة بدراسة المعنى وإنه السبيل المؤدية إلى المعرفة وجمعه معانٍ، والمعاني هي «الصور الذهنية من حيث إنه وُضع بإزائها الألفاظ، والصور الحاصلة في العقل فمن حيث إنها تقصد باللفظ سميت مفهوماً»[14].

أما الفاصلة فهي مصطلح أطلقهُ العلماء على آخر كلمة في الآية، وهي تقابل مصطلح (القافية) في الشعر، وقرينة السجع قال الإمام الزركشي: «هي كلمة آخر الآية كقافية الشعر، وقرينة السجع»[15].

وسُميت آخر كلمة في الآية فاصلة لأنها تفصل ما بعدها عمّا قبلها[16].

وقد جعل الرماني وأبو بكر الباقلاني الفاصلة يقع بها إفهام المعاني، يقول الرماني في تعريف الفاصلة: «الفواصل حروف متشاكلة توجب حسن إفهام المعاني»[17] ويقول الباقلاني في تعريفها «الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني»[18].

ونحن نوافقهما فيما ذهبا إليه شرط أن تكون الفواصل جملاً مستقلة تؤدي

---

(10) دلائل الإعجاز 184.
(11) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع 48.
(12) مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة 31.
(13) علم الدلالة 11، والتفكير اللغوي الدلالي عند علماء العربية المتقدمين 73.
(14) التعريفات 281.
(15) البرهان في علوم القرآن 1/ 53. وانظر الإتقان في علوم القرآن 2/ 940.
(16) معترك الأقران في إعجاز القرآن 1/ 25.
(17) النكت في إعجاز القرآن 97 (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن).
(18) إعجاز القرآن للباقلاني 244.

معنى تاماً مستقلاً من نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[19] وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[20] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[21].

وإنما قلتُ جُملاً مستقلة؛ لأن هناك فواصل ليست على تلك الصفة، وإنما هي آية قائمة بذاتها، من نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾[22] وقوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾[23] وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾[24] وقد تكون الفاصلة جزءاً من آية مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ*وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ*ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾[25] فالطارق، والثاقب، فواصل لآيات وهي بمنزلة الجزء من الكل لا يمكن فصلها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ﴾[26] فالزيتون وسينين بمنزلة الجزء من الكل. والعلماء مجمعون على عدم تسمية الفواصل قوافٍ، قال السيوطي: «ولا يجوز تسميتُهُ قوافي إجماعاً؛ لأن الله تعالى لمّا سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه أيضاً لأنها منه، وخاصة في الاصطلاح، وكما يمتنع استعمال القافية فيه يمتنع استعمال الفاصلة في الشعر؛ لأنها صفة لكتاب الله تعالى فلا تتعداه»[27].

أما إطلاق السجع[28] على الفاصلة ففيه خلاف بين العلماء من حيث المنع

---

(19) سورة البقرة، الآية: 29.
(20) سورة البقرة، ، الآية: 114.
(21) سورة آل عمران، الآية: 29.
(22) سورة الضحى، الآية: 1.
(23) سورة الفجر، الآية: 1.
(24) سورة العصر، الآية: 1.
(25) سورة الطارق، الآيات: 1 ـ 3.
(26) سورة التين، الآيتان: ! و2.
(27) الاتفاق في علوم القرآن 2/ 942. وانظر في نفي الشعر عن القرآن إعجاز القرآن للباقلاني: 69.
(28) السجع في اللغة من سجع يسجع سَجْعاً: استوى واستقام وأشبه بعضه بعضاً، والسجع الكلام المقفى، والجمع أسجاع وأساجيع، وكلام مُسجّع وتسجيعاً تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن، لسان العرب مادة (سجع) 8/ 150.

أو الجواز، وحجة المانعين أن السجع: «أصله من سجع الطير فشُرّف القرآن أن يستعار لشيء منه لفظ أصله مهمل»[29] وكذلك «رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم»[30].

فمن المانعين الرماني الذي يفرق بين الأسجاع والفواصل، ويصف الفواصل بالبلاغة، والأسجاع بالعيب؛ وذلك إن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها[31].

وتبع الباقلاني الرماني فيما ذهب إليه من إنكار السجع في القرآن، يقول الباقلاني: «ذهب أصحابنا كلهم إلى نفي السجع من القرآن»[32] ويصف من يقول به بأنه وهم، إذ يقول: «والذين يقدرون بأنه سجع هو وَهْمُ لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع، وإن لم يكن سجعاً؛ لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض، لأن السجع يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن؛ لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى»[33] وحكم الرماني والباقلاني فيه نوع من التعسف ضد الأسجاع؛ فلا يمكن أن يؤخذ كلامهما على إطلاقه، فقد ردّه بعض العلماء منهم ابن سنان الخفاجي الذي يقول: «والفواصل على ضربين: ضرب يكون سجعاً، وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع، وضرب لا يكون سجعاً، وهو ما تقابلت حروفه في المقاطع ولم تتماثل، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين من أن يكون يأتي طوعاً سهلاً وتابعاً للمعاني؛ وبالضد من ذلك، يكون متكلفاً يتبعه المعنى، فإن كان من القسم الأول فهو المحمود، الدالُّ على الصفاحة وحسن البيان، وإن كان من الثاني فهو مذموم مرفوض.. فأما القرآن فلم يرد منه إلا ما

---

(29) الاتقان في علوم القرآن 2/ 942.

(30) سر الفصاحة 174. وانظر معترك الأقران في إعجاز القرآن 1/ 26.

(31) النكت في إعجاز القرآن للرماني 97 (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن).

(32) إعجاز القرآن للباقلاني 76.

(33) المصدر نفسه 77.

هو من القسم الأول المحمود لعلوه في الفصاحة. . وقد وردت فواصل متماثلة، ومتقاربة فمثال المتماثلة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ* وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ* فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ* وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾[34].

وقوله تعالى: ﴿طه*مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ*إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ*تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى*ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[35].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا*فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا*فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا*فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا *فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾[36] وجميع هذه السور ـ اي القصار ـ على الازدواج، وهذا جائز أن يسمى سجعاً؛ لأن فيه معنى السجع، ولامانع في الشرع يمنع من ذلك. ومثال المتقارب في الحروف قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ*مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[37] وقوله تبارك وتعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ*بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾[38] وهذا لا يسمى سجعاً لأن السجع ما كانت حروفه متماثلة. ثم يقول ابن سنان: «وأما قول الرماني (إن السجع عيب والفواصل بلاغة). على الإطلاق فغلط؛ لأنه إن أراد بالسجع ما يكون تابعاً للمعنى، وكأنّه غير مقصود فذلك بلاغة، والفواصل مثله. وإنْ كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعة له، وهو مقصود متكلف فذلك عيب»[39].

وهذا الذي ذهب إليه ابن سنان قد ذهب إليه ابن الأثير إذ يقول: «وقد ذمّه ـ أي السجع ـ بعض أصحابنا، من أرباب هذه الصناعة، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم، فإنه قد أتى منه بالكثير، حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرهما»[40].

---

(34) سورة الطور، الآيات: 1 ـ 4.

(35) سورة طه، الآيات: 1 ـ 5.

(36) سورة العاديات، الآيات: 1 ـ 5.

(37) سورة الفاتحة، الآيتان: 2 و3.

(38) سورة ق، الآيات: 1 ـ 3.

(39) سر الفصاحة 173 ـ 174 وانظر إعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب 214.

(40) المثل السائر 1/ 333.

ومن القائلين بالسجع في القرآن أبو هلال العسكري، إذ يقول: «وكذلك جميع ما في القرآن مما يجري من التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى، وصفاء اللفظ، وتضمن الحلاوة، لما يجري مجراه من كلام الخلق»[41].

ومن المحدثين الدكتور فتحي أحمد عامر، إذ ناقش هذه المسألة، وذكر آراء العلماء القائلين بمنع إطلاق السجع على القرآن، والقائلين بجوازه بكلام طويل، وانتهى إلى أن السجع في القرآن من الإعجاز، فهو يقول: «ولم يكن كل هدفنا من التطويل في موضوع السجع أن ندعو إليه ونرسم صورة للقارئ بأنه هو الطريقة المثلى في النثر الفني، ولكن كانت غايتنا أن نستدل على أن السجع من أنماط النثر الفني الذي نشأ عليه العرب وألِفوه قبل الإسلام، وفي حاضر الإسلام، وفي عصوره المتوالية حتى العصر الذي نعيش فيه، وإنه سليقة فطرية للتعبير، وإنه في القرآن غير متكلَّف ولا مقصود، وإنّما هو من جنس كلام العرب الذي قصد إفهامهم بما تنطق به السنتهم من حروف وكلمات وجمل وعبارات، وليطمئن الباقلاني ومن حذا حذوه. فإن نسبة السجع إلى القرآن إفحام آخر وإعجاز للعرب زيادة على إفحامهم بالأسلوب المرسل وليس القرآن نغمة مسجوعة في آياته كلها بل تتنوع آياته بين السجع والإرسال دليلاً على الطبع وبرهاناً على أنه يتدفق من نبع أصيل، كلت دونه الأفهام، وتقطعت النفوس حسرات»[42].

ويرى أنه لا يوجد تنافر أو بُعد بين الفاصلة والسجع، ثم يقرر إن السجع في القرآن تقرير للفاصلة بقوله: «وعلى الجملة فنحن لا نرى تنافراً أو بعداً بين الفاصلة والسجع في القرآن لأن الفاصلة ـ سواء كانت كلمة آخر الآية، أو كلمة آخر الجملة، أو حروفاً متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعنىٰ أو كلاماً منفصلاً عما بعده ـ لا تتنافى مع السجع، الذي هو كلام مقفى، أو كلام يتوالى

(41) الصناعتين 260.

(42) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم 215.

على روي واحد، أو حدّ واحد، أو هو حروف متشابكة في المقاطع يقع بها إفهام المعنى، أو كلام منفصل عما بعده، كما قيل في الفاصلة. فالقول بالسجع في القرآن تقرير للفاصلة، والقول بالفاصلة ليست إنكاراً للسجع في حقيقة الأمر. إذ هما متقابلان أو متلاقيان في معناهما. فكلمة آخر الآية تسمى رأس آية أو فاصلة، فإذا توالت الآيات على نمط واحد، وقد اشتركت حروف أو آخرها سميت فواصل أو أسجاعاً لا غضاضة في أيهما، إلا أن الفواصل أعمّ. والفواصل في القرآن الكريم تكون شاجية النغم، حلوة الجرس، هذبة الرنين، تطرب بلفظها، كما تطرب بمعناها، ليتم لها الحسن من جميع جهاته»[43]. وعلى ذلك فنحن مع من أجاز إطلاق اسم السجع على الفاصلة ذات الحروف المتماثلة إذ لا تعارض بينهما «ولا مانع في الشرع يمنع ذلك»[44]. وعلى كل فإن الفاصلة ظاهرة قرآنية واضحة المعالم في الصورة التي جاء بها القرآن، والتي بها انفرد عن أن يكون نثراً، أو أن يكون شعراً، على نحو ما كان عليه الأدب العربي. وهذا يعني أن الفاصلة قد جعلت القرآن نوعاً جديداً من أنواع الكلام العربي، فإذا كان الكلام العربي قبل نزول القرآن هو الشعر والنثر، فإنه بعد نزول القرآن أصبح الكلام العربي: شعراً ونثراً وقرآناً، يقول الدكتور طه حسين: (والقرآن ليس نثراً، كما أنه ليس شعراً، إنما هو قرآن، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم، ليس شعراً، وهذا واضح، فهو لم يتقيّد بقيود الشعر، وليس نثراً؛ لأنه مقيّد بقيود خاصة لا توجد في غيره وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة، فهو ليس شعراً ولا نثراً)[45].

ويعتبر العلماء هذا الأسلوب الذي جاء به القرآن إعجازاً قائماً بذاته؛ لأنه نقض العادة وخرج على المألوف وهذا شأن المعجزة، يقول الرماني: «فإنّ العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة منها الشعر، ومنها السجع،

(43) المرجع نفسه 216.

(44) سر الفصاحة 173.

(45) من حديث الشعر والثر 25.

ومنها الخطب، ومنها الرسائل ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، له منزلة في الحسن تفوق كل طريقة، ولولا أن الوزن يحسّن الشعر لنقصت منزلته في الحسن نقصاناً عظيماً، ولذلك من جاء بغير الوزن المعروف في الطباع الذي من شأنه أن يحسن الكلام بما يفوق الموزون، فهو معجزة»[46].

يريد الرماني أن يقول: إن القرآن مع خلوه من الوزن الملتزم الذي يحسن الكلام، والذي يجعل للشعر هذه المنزلة ذات الأثر القوي في النفوس ومع خلوه من هذا فقد علا بحسنه على كل حُسن، وفاق مع تجرده من الزخرفِ والحِلى كل كلام مزخرف محلى، وبهذا كان معجزاً.

حقاً إن الفاصلة معجزة في القرآن فهي «مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها، تعلقاً تاماً، بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم، فهي تؤدي في مكانها جزءاً من معنى الآية، ينقص ويختل بنقصانها»[47].

وقد يشتدّ تمكن الفاصلة في مكانها، حتى لتوحي الآيات بها، قبل نطقها، كما روي عن الرسول ﷺ كان يملي على زيد بن ثابت قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَـةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[48].

وهنا قال معاذ بن جبل ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ فابتسم النبيُّ ﷺ ثم قال: (بها ختمت)[49].

---

(46) النكت في إعجاز القرآن 102.

(47) من بلاغة القرآن 75 ـ 76.

(48) سورة المؤمنون، الآيات: 12 ـ 14.

(49) الاتفاق في علوم القرآن 2/ 170.

وحتى ليأبى قبولها، والاطمئنان إليها، مَن له ذوق سليم إذا غيرت وأبدل بها سواها، من ذلك أنّ إعرابياً سمع قارئاً يقرأ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[50] فوضع القارئ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مكان ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قائلاً: فاعلموا أنَّ الله غفورٌ رحيم فقال الإعرابي، ولم يكن يقرأ القرآن: إن كان هذا كلام الله فلا، الحكيم لا يذكر الغفرانَ عند الزلل، لأنه إغراء عليه[51] وقد تصرّف القرآن في الفاصلة تصرفاً معجزاً فهي: ألوان تتعدد بعدد أي القرآن، فكلّ فاصلة مقطع من البيان، وآية من آيات الإعجاز في اتصالها بالآية، وفي انفرادها عنها، وفي توازنها مع غيرها أو استقلالها بذاتها[52].

وسأتناول في هذا البحث لوناً واحداً من الفاصلة القرآنية، ألا وهو تبعية النسق الإيقاعي في الفاصلة للمعنى من خلال المواطن الآتية:

أولاً: التقديم والتأخير

قد يقدم القرآن كلمة على أخرى في موطن، ويؤخرها في موطن آخر بما ينسجم مع النسق الإيقاعي للسورة، وقد جعل بعض العلماء ذلك من مواطن رعاية الفاصلة والمحافظة على النسق الإيقاعي في السورة.

من ذلك تقدم لفظ (هارون) على (موسى) في سورة (طه) في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾[53] وتقديم (موسى) على (هارون) في سورة (الشعراء) في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[54].

العلماء مجمعون على أفضلية (موسى) على (هارون) لذلك لم يعترضوا على

(50) سورة البقرة، الآية: 209.

(51) البيان والتبيين 2/ 269 وانظر فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن 221.

(52) إعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب 216.

(53) سورة طه، الآيتان: 69 و70.

(54) سورة الشعراء، الآيات: 46 ـ 48.

تقديم (موسى) على هارون) في سورة الشعراء، ولكنهم ذكروا[55] أن تقديم (هارون) على (موسى) في سورة (طه) هو المحافظة على النسق الإيقاعي في السورة.

وتقديم (هارون) على (موسى) في سورة (طه) يقتضيه السياق كما تقتضيه رعاية الفاصلة، فأما السياق فلأن الآية بعدها ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ والضمير في (له) يعود إلى أقرب مذكور، ولهذا لم يقل بربِّ موسى وهارون لأنّ الضمير في هذه الحالة سوف يعود على هارون، والمراد موسى، فلهذا كان لا بد لإقامة السياق من الترتيب الذي عليه الآية ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ وأما الفاصلة فلأن رؤوس الآيات في السورة جاءت في الأغلب الأعم بألف المد المقصورة أو الممدودة فجاءت مناسبة لها[56] ويذكر الدكتور فاضل السامري[57] ثلاثة أسباب لتقديم (هارون) على (موسى) في سورة (طه) وموسى على هارون في سورة (الشعراء) من خلال الفرق بين القصتين.

1 ـ إن ذكر (هارون) تكررفي سورة (طه) كثيراً[58] وقد جعله الله شريكاً لموسى في تبليغ رسالته، في حين لم يرد في سورة الشعراء إلا قليلاً[59] فالقصة في سورة (طه) مبنية على التثنية، وأنها في سورة (الشعراء) مبنية على الإفراد.

2 ـ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنه ذكر في آيات سورة (طه) خوف موسى ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[60] ولم يذكر حالة الخوف هذه في الشعراء فأنت ترى أنه ذكرت جوانب الكمال والقوة في موسى في سورة الشعراء، ولم تذكر حالة الضعف البشري الذي اعتراه. فاقتضىٰ كل ذلك المغايرة في التعبير بين القصتين.

---

(55) انظر على سبيل المثال الإتقان في علوم القرآن 2/ 946 ومعترك الأقران في إعجاز القرآن 1/ 27.
(56) فواصل الآيات القرآنية 76 ـ 97.
(57) انظر التعبير القرآني 221 ـ 224.
(58) انظر في سورة طه الآيات: 29 ـ 32، 42 ـ 49، 63 ـ 90، 92، 93.
(59) انظر في سورة الشعراء، الآيات: 13 ـ 15.
(60) سورة طه، الآية: 67.

3 ـ أضف إلى ذلك أن سورة (طه) تبدأ بالحرفين: الطاء والهاء وسورة الشعراء تبدأ بـ(طسم) فكلتا السورتين تبدأ بالطاء غير أن الحرف الأخير من (طه) هو الهاء، وهو أول حروف هارون وليس فيها حرف من حروف موسى والحرف الأخير من ﴿طسٓمٓ﴾ هو الميم وهو أول حرف من حروف (موسى) وليس فيها حرف من حروف هارون. أفلا يزيد حسناً على حسن تقديم هارون على موسى في سورة (طه) وتقديم موسى على هارون في الشعراء فانظر أي سر من أسرار التعبير هذا؟

ومن التقديم والتأخير تقديم ما هو متأخر في الزمان نحو قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾(61).

قال السيوطي: (ولولا مراعاة الفواصل لقدمت الأولى، كما قدمت في قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾(62))(63).

تقول الدكتورة عائشة بنت الشاطئ: ليسَ القصد إلى رعاية الفاصلة هو وحده الذي اقتضى تقديم الآخرةِ هنا على الأولى، وأنَّما اقتضاها المعنى أولاً في سياق البشرى والوعيد، إذ الآخرةُ خير وأبقى، وعذابها أكبر وأشد وأخزى. وبهذا الملحظ البياني قدمت الآخرة على الأولىٰ في سياق البشرى للمصطفى عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾(64) كما قدمت الآخرة على الأولى في سياق الوعيد لفرعون في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ﴾(65) ثم توجز كلامها فيما سبق بقولها: مقتضى الإعجاز أنه ما من فاصلة قرآنية لا يقتفي لفظها في سياقه، دلالة معنوية لا يؤديها لفظ سواه، قد تتدبره فتهتدي إلى سرّه البياني، وقد يغيبُ عنا فنقرُ بالقصور عن إدراكه، ولا يظن بي أنني أهوّن من قيمة التآلف اللفظي

(61) سورة النجم، الآية: 25.
(62) سورة القصص، الآية: 70.
(63) معترك الأقران في إعجاز القرآن 1/ 27.
(64) سورة الضحى، الآيتان: 4 و5.
(65) سورة النازعات، الآيتان: 24 و25.

والإيقاع الصوتي لهذا النسق الباهر الذي نجتلي فيه فنية البلاغة، تؤدي المعنى بأرهف لفظ وأروع تعبير وأجمل إيقاع. فالبلاغة من حيث هي فن القول، لا تفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه، ولا تعتد بمعان جليلة تقصر الألفاظ عن التعبير البليغ عنها، كما لا تعتد بألفاظ جميلة تُضيع المعنى أو تجورُ عليه ليسلم لها زخرف بديعي. وهذا هو الحد الفاصل بين فنية البلاغة كما تجلوها الفواصل القرآنية بدلالتها المعنوية المرهفة ونسقها الفردي في إيقاعها الباهر، وبين ما تقدمه الصنعة البديعية من زخرف لفظي يُكره الكلمات على أن تجيء في غير مواضعها[66].

ثانياً: الحذف

قد يحذف القرآن شيئاً من الكلمة من الفاصلة لتنسجم مع النسق الإيقاعي للسورة، ولو أبقاه لم يتحقق هذا الانسجام.

من ذلك حذف كاف الخطاب من الفاصلة (قلى) في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[67] وكذلك حذف كاف الخطاب في الفواصل بعدها في (فأوى) و(فهدى) و(فأغنى).

وقد رأى بعض العلماء[68] أن ذلك لمشاكلة رؤوس الآيات ورعاية الفاصلة. وتبعهم في ذلك بعض المحدثين، إذ ساق الدكتور عبد العزيز عتيق أمثلة كثيرة على حذف المفعول للمحافظة على الفواصل، ومنها الآيات المذكورة، ثم علق على ذلك بقوله: «وحذف المفعول في هذه الأمثلة وما أشبهها هو للمحافظة على وحدة الحرف الأخير من الفواصل والذي ينزّل في النثر المسجوع منزلة حرف الروي في الكلام المنظوم»[69]. وما ذهب إليه العلماء وبعض الدراسين المحدثين

---

(66) الإعجاز البيان للقرآن 278 وانظر فواصل الآيات القرآنية 119 ـ 120.

(67) سورة الضحى، الآيات: 1 ـ 3.

(68) انظر على سبيل المثال: معاني القرآن للفرّاء 3/ 273، والجامع لأحكام القرآن 20/ 94، والبرهان في علوم القرآن 3/ 167، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن 1/ 29.

(69) في البلاغة العربية 129.

غير دقيق، تقول الدكتورة بنت الشاطئ: «ولو كان البيان القرآني يتعلق بهذا الملحظ اللفظي فحسب؛ لما كانَ عدل عن رعاية الفاصلة في الآيات بعدها ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۞ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[70] وليس في السورة كلها (ثاء) فاصلة بل ليس فيها حرف ثاء، على الإطلاق وعلى مذهبهم، كانت الفواصل تراعى بمثل لفظ (فخبّر) لمشاكلة رؤوس الآيات بالعدول إلى هذا اللفظ عن (فحدّث)، وحذف الكاف من (وما قلى) مع دلالة السياق عليها، تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللطف، هي تحاشى خطابه تعالى رسوله المصطفى، في موقف الإيناسِ بصريح القول: وما قلاك، لما في القلى من حس الطرد والإبعاد، وشدة البغض. وأما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذِن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب، كما لا يكون توديع إلا مع رجاء العودة وأمل اللقاء وحذفت كاف الخطاب في الفواصل بعدها، لأن السياق بعد ذلك أغنى عنها ومتى أعطى السياق الدلالة المرادة مستغنياً عن الكاف، فإن ذكرها يكون من الفضول والحشو المنزه عنهما أعلى بيان»[71] ويبدو لي أن هناك سبباً آخر لحذف الكاف في الفواصل التي بعدها، هو التوسع في المعنىٰ زيادة على مراعاة الفواصل، والمراد أنه أواك وأوى لك، وأوى بك خلقاً كثيرين، وإنه هداك وهدى لك وهدى بك خلقاً كثيرين، وإنه أغناك وأغنى لك وبك[72]. فانظر كيف اقتضى حذف الكاف المعنى علاوة على النسق الإيقاعي الذي أحدثته الفاصلة.

ومن الحذف حذف الضمير من الفاصلة (هدى) في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾[73].

والنسق الإيقاعي يقتضي أن تنتهي الفاصلة بألف مقصورة على نسق فواصل آيات سورة (طه) حتى تحقق الانسجام الموسيقي، ولكن حذف الضمير اقتضاه المعنى، فضلاً عن النسق الإيقاعي الدي اقتضته السورة «ذلك أنه أخرج

(70) سورة الضحى، الآيات: 9 ـ 11.

(71) الإعجاز البياني للقرآن 269. وانظر فواصل الآيات القرآنية 108.

(72) انظر: روح المعاني 30/ 136. والجملة العربية والمعنى 182.

(73) سورة طه، الآية: 79.

الفعل مخرج العموم، أي: إن فرعون لم يتصف الهداية البتة. ولو قال: (وما هداهم) لكان عدم الهداية مقيّداً بقومه، إذ يحتمل أنه هدى غيرهم لكنه قال: (وما هدى) أي: ما هدى أحداً، فهو قد أضلّ قومه ولم يهد أحداً لا من قومه ولا من غيرهم»[74]. فانظر إلى أن حذف الضمير اقتضاه المعنى، فضلاً عن النسق الإيقاعي الذي اقتضته السورة.

ومن الحذف أيضاً حذف الضمير من الفاصلة (يضرون) في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ*أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[75] فقد أثبت مفعول النفع وحذف مفعول الضر، وقد يتوهم متوهم أن ذلك لتحقيق النسق الإيقاعي في السورة فقط. والسبب في ذكر مفعول النفع، وحذف مفعول الضر، وذلك لأنّهم يريدون النفع لأنفسهم، وأما الضرّ فقد أطلق لسببين:

الأول: إن الإنسان لا يريد الضرر لنفسه وإنما يريده لعدوه. والآخر إن الإنسان يخشىٰ من يستطيع أن يلحق به الضرر. فالنفع موطن تخصيص، والضر موطن إطلاق، فخص النفع، وأطلق الضر. والمعنى أن هذه الآلهة لا تتمكن من الإضرار بعدوكم، كما أنها لا تستطيع أن تضركم فلماذا تعبدونها؟ ولو ذكر المفعول به فقال (أو يضرونكم) لما أفاد هذين المعنيين، فانظر كيف أن الإطلاق اقتضاه المعنى علاوة على النسق الإيقاعي[76].

ومن الحذف لأجل الفاصلة، حذف الياء من (يسر) في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ* وَلَيَالٍ عَشْرٍ* وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾[77].

فحذف حرف الياء في (يسر) سببه الفاصلة عند سيبويه، إذ يقول: «وجميع ما لا يحذف في الكلام وما يختار فيه إن لا يحذف في الفواصل والقوافي، فالفواصل قول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[78].

---

(74) التعبير القرآني 220.

(75) سورة الشعراء، الآيتان: 72 و73.

(76) التعبير القرآني 219، والجملة العربية والمعنى 182.

(77) سورة الفجر، الآيات: 1 ـ 4.

(78) الكتاب 4/ 185.

وحذف الياء في (يسر) هو الوجه المختار عند الفراء، مراعاة للنسق الإيقاعي في الفاصلة، يقول الفراء: «وقد قرأ القراء[79] (يسري) بإثبات الياء، و(يسر) بحذفها، وحذفها أحبُّ إلي لمشاكلتها رؤوس الآيات، ولأنَّ العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها»[80].

وتبعه في ذلك ابن سنان الخفاجي، إذ يقول: «وحذفوا الياء من (يسري) طلباً للموافقة في الفواصل»[81].

ويعلل الأخفش ذلك بقوله: «إن عادة العرب إذا عدلت بالشيء من معناه نقصت حروفها،والليل لما كان لا يسري، وإنما يسري فيه نقص منه حرف»[82].

والتعليل الذي ذكره الأخفشُ غير دقيق، والدليل على قولنا هذا إن القرآن الكريم يستعمل (تجري)[83] ـ بإثبات الياء ـ للأنهار، والأنهار لا تجري وإنما يجرىٰ بها.

ونرى أن حذف الياء من (يسر) يرجع إلى الأسباب الآتية:

1 ـ إن حذف الياء وإثباتها واردان عن العرب كما ذكر ذلك الفراء في النص السالف، ولكن المسألة تتعلق بالمقام، وطول المقام يناسبه إثبات الياء، وقصر المقام يناسبه حذف الياء، والآيات في سورة الفجر قصيرة سريعة يناسبها حذف الياء.

2 ـ سكون الليل وهدوؤه وسرعة انقضائه يناسبه حذف الياء، لأن حروف المد تناسب الطول والحركة وعدم السكون.

---

(79) قرأ الجمهور (يسر) بحذف الياء وصلاً ووقفاً، وابن كثير بإثباتها فيهما، ونافع وأبو عمرو بخلاف عنه في الوصل وبحذفه في الوقف. انظر السبعة في القراءات 683، والبحر المحيط 8/ 468.

(80) معاني القرآن 3/ 260.

(81) سر الفصاحة 173. وانظر البرهان في علوم القرآن 1/ 73.

(82) البرهان في علوم القرآن 3/ 107.

(83) انظر على سبيل المثال سورة التوبة، الآيتان 72، 100.

كل الذي ذكرناه يناسبه حذف الياء ثم جاء النسق الإيقاعي ليزيده حسناً على حسن.

ثالثاً: الزيــادة

قد يتبادر إلى الذهن أن القرآن الكريم قد يزيدُ حرفاً في الفاصلة لتحقيق الانسجام الموسيقي.

من ذلك زيادة حرف الألف في كلمة (الظنون) و(الرسول) و(السبيل) في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾[84] وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا﴾[85] وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا﴾[86]. ذهب بعض العلماء إلى القول بزيادة حرف المد في الكلمات الثلاثِ من أجل النسق الإيقاعي في السورة، وتماثل رؤوس الآي. يقول القرطبي: «وهذه الألف تقع في الفواصل فيوقف عليها ولا يوصل بها»[87].

ومن المحدثين القائلين بزيادة حرف المدّ في الكلمات الثلاث لرعاية الفاصلة الدكتور تمام حسان، إذ يقول: «وقد يكون هذا العدول عن الأصل أو ذاك الترخّص في القاعدة لرعاية الفاصلة. فمن المقرر في القواعد أن الألف تنوب عن التنوين الذي بعد الفتحة عند الوقف، كما سبق في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[88]، ولأن التنوين الذي نابت عنه الألف لا يجتمع مع أداة التعريف (أل) خلت النصوص العربية من الجمع بينهما حتى في قوافي الشعر، لأن الألف التي تجامع (أل) في قوافي الشعر ألف إطلاق وليست ألف إبدال أو تعويض.

---

(84) سورة الأحزاب، الآية: 10.
(85) سورة الأحزاب، الآية: 66.
(86) سورة الأحزاب، الآية: 67.
(87) الجامع لأحكام القرآن 14/ 249.
(88) سورة النساء، الآية: 46.

ومع ذلك تأتي ألف الإبدال في القرآن في كلمات اقترنت بأداة التعريف، وكانت الألف في هذه الحالة لرعاية الفاصلة»[89].

وقد وافقه الدكتور كمال الدين عبد الغني المرسي، معلقاً علي توجيه الدكتور تمام بقوله: «وقد أصاب الدكتور تمام حسان في هذا التوجيه»[90].

نقول صحيح إن زيادة حرف المدّ في الكلمات الثلاث (الظنون) و(الرسول) و(السبيل) يعطي نسقاً إيقاعياً منسجماً مع السورة التي تنتهي فواصلها ـ في الأغلب ـ بألف المد، ولكن هذا الإيقاع جاء متضافراً مع المعنى، فالمعنى يتطلب مدّ الظنون ذلك لأن المؤمنين «ظنوا ظنوناً كثيرة مختلفة فأطلقها في الصوت مناسبة لتعددها وإطلاقها. ولو قال (الظنون) لوقف علىٰ ساكن والساكن مقيّد، فناسب إطلاق الألف إطلاق الظنون، والمؤمنون ههنا في موقف ضيّق وخوف شديدين وزلزلة عظيمة، كما أخبر عنهم ربنا، فغمرتهم الظنون وشرقوا وغربوا فيها، فأطلق الصوت مناسبة لإطلاق الظنون وتعددّها»[91].

والمد في كلمتي (الرسول) و(السبيل) يتطلبه المعنى أيضاً، فهو من قول أهل النار، وهم يصطرخون فيها، ويمدون أصواتهم بالبكاء، كما أخبر عنهم ربنا بقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ﴾[92]، فالمقام هنا مقام صراخٍ ومد الصوت ومد الصوت يناسب ذلك[93] فانظر إلى الفاصلة كيف جاءت تابعة للمعنى فزادها ذلك حسناً علىٰ حُسن. وعندما لا يتطلب المقام زيادة حرف المدّ فلا يزيد القرآن ذلك، ونلفت النظر إلى أن القرآن الكريم في نفس السورة لم يزد حرف المد عندما لم يحتج المقام إلى ذلك[94]، وهو قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ

(89) البيان في روائع القرآن 1/ 200.
(90) فواصل الآيات القرآنية 126.
(91) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني 38.
(92) سورة فاطر، الآية: 37.
(93) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني 38.
(94) انظر: البرهان في علوم القرآن 1/ 61.

لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[95] .

ومن الزيادة أيضاً، زيادة حرف الألف في كلمة (**قواريرا**) الأولى في قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾[96] . ويذكره العلماء في باب صرف ما لا ينصرف، ويرجعون سبب صرف (**قواريرا**) الأولى وزيادة الألف فيها للفاصلة القرآنية[97] .

ولم يكن النسق الإيقاعي في الفاصلة القرآنية هو السبب الوحيد في زيادة حرف الألف في (**قواريرا**) وإطلاقها. ولكن المعنى هو الذي تطلب ذلك، إذ إنه أطلق (**قوَاريرا**) الأولى مناسبة لإطلاق جنسها ونوعها، فهو لم يبيّن نوع القوارير، ولا من أي جنس هي، فأطلقها لذلك، ولمّا قيّد جنسها في الآية التي تليها فقال: (**قواريرا مِنْ فِضْةٍ**) لم يطلقها[98] فانظر إلى الفاصلة كيف جاءت تابعة للمعنى.

رابعاً: اختلاف الفاصلة في الآيات المتشابهة

نرى في القرآن الكريم فاصلتين مختلفتين لآيتين متشابهتين، وقد يُظن أنّ ذلك مراعاة للنسق الإيقاعي في الفاصلة، إذ يجعل القرآن نهاية كل آية ما ينسجم موسيقياً مع أخواتها، من ذلك يختم آية إبراهيم بـ(**ظلوم كفار**) في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[99] ويختمه في سورة (النحل) بـ (غفور رحيم) في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[100] ولا شك أن خاتمة كل من الآيتين تنسجم مع النسق

---

(95) سورة الأحزاب، الآية: 4.
(96) سورة الإنسان، الآيتان: 15 و16.
(97) الإتقان في علوم القرآن 2/ 947، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن 1/ 27.
(98) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني 39.
(99) سورة إبراهيم، الآية 34.
(100) سورة النحل الآية: 18.

الإيقاعي لكلا السورتين. ولكن السياق أيضاً يقتضي الفاصلة التي فصلت فيها كل آية من الآيتين. مع أنهما تتحدثان عن نعمة الله، وتقرران عجز الناس عن إحصاء نِعَم الله عليهم، مهما حاولوا عدّها وحصرها؛ وذلك لكثرتها وشمولها واستمرارها.

ولمن يسأل عن اختلاف الفاصلة نقول: إن فاصلة كل آية تتناسب مع السياق العام الذي وردت فيه الآية. فالسياق العام لآيات سورة إبراهيم هو الحديث عن الإنسان، والآيات السابقة تعرض مجموعة من صفات الإنسان، القائمة على الجحود والنكران، والكفر بالله وعدم الاعتراف له بالفضل على نِعَمه، ولذلك جاءت الفاصلة في صفتين من صفات الإنسان وهما الظلم والكفران، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ۝ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾[101].

أما السياق العام لآيات سورة النحل فهو الحديث عن صفات الله المنعم المعطي الكريم، ولذلك جاءت الفاصلة في صفتين من صفات الله، وهما: المغفرة والرحمة. إذ الآيات السابقة فيها الحديث عن الأنعام التي سخرها الله للناس والماء الذي أنزله لهم، والزرع والثمار التي ينبتها لهم، والليل والنهار والشمس والقمر ينتفعون بها، والبحر يستفيدون منه، والأرض وجبالها، والنجوم يهتدون بها: كل هذه نِعَم من الله المنعم، أنعم بها عليهم، وإن حاولوا عدّ هذه النعم عجزوا عن إحصائها والله المنعم المتفضل غفور رحيم[102].

إذن حديث سورة إبراهيم عن الإنسان، فجاءت فاصلة الآية عن الإنسان الظلوم الكفار، وحديث سورة النحل عن الله، فجاءت فاصلة الآية عن الله

(101) سورة إبراهيم، الآيات: 28 ـ 31.

(102) التبعير القرآني 220 ـ 221، وإعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني 326 ـ 327 وانظر سورة النحل، الآيات: 5 ـ 18.

الغفور الرحيم، قال الزركشي: «إن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جُبلَ عليه، فناسب ذكر ذلك عقب أوصافه. وأما آية النحل فسبقت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته، وتحقيق صفاته فناسب ذكر وصفه سبحانه»[103] وجاء في (معترك الأقران): «إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت آخذها وأنا معطيها، فحصل لك عن أخذها وصفان: كونك ظلوماً، وكونك كفاراً، يعني لعدم وفائك بشكرها، ولي عند إعطائها وصفان، وهما إني غفور رحيم، أقابل ظلمك بغفراني وكذلك برحمتي»[104].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾[105] ثم كررت هذه الآية في سورة فصلت ولكنها خُتمت بفاصلة أخرى، قال تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[106].

وخاتمة كل من الآيتين تنسجم مع النسق الإيقاعي لكلا السورتين.

ولكن هذا الإيقاع تابع لمقتضى المعنى، ذلك إن الآية الأولى جاء قبلها حديث عن منكري البعث، فناسب ختم الآية بالحديث عنه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ أما الآية الثانيةُ فناسب ختمها معناها: من جزاء كل إنسان بما يستحق[107].

ومثل ذلك ختام آية الرعد بقوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾[108]

---

(103) البرهان في علوم القرآن 1/ 86 ـ 87.

(104) معترك الأقران في إعجاز القرآن 1/ 35.

(105) سورة الجاثية، الآيتان 14 ـ 15.

(106) سورة فصلت، الآية: 46.

(107) انظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن 1/ 35 ـ 36، ومن بلاغة القرآن 84.

(108) سورة الرعد، الآية: 32.

وختمها في آية الحج بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[109].

وخاتمة كل من الآيتين تنسجم مع النسق الإيقاعي لكلا السورتين، ولكن السياق يقتضي الفاصلة التي فصلت فيها كل آية من الآيتين، ففي آية (الرعد) ذكر المستهزئين، وفي آية الحج ذكر المكذبين، والمستهزئون أعظم جرماً من المكذبين، لأنهم يجمعون السخرية إلى التكذيب فكان الوعيد لهم أشد، إذ رب نكير لا يصحبه عقاب، فجعل كل، وعيد بإزاء جرمه الذي يناسبه، قال ابن الزبير الغرناطي: «إن العقاب أشد موقعاً من النكير، لأن الإنكار قد يقع على ما لا عقاب فيه بالفعل، وعلى ما فيه العقاب بالفعل، أما مسمى العقاب فإنه يراد به في الغالب أخذ بعذاب يناسب لحال المجرم إثر معصيته، وعقيب جرمه. وقد تقدم في آية الرعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ والاستهزاء أمر مرتكب زائد على التكذيب من التهاون، والاستخفاف بجريمة مرتكبه أشنع جريمة فناسبها الإفصاح بالعقاب. أما آية الحج، فإن الوعيد فيها للمذكورين بالتكذيب، ولم يذكر منهم استهزاء، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ فلم يخبر عن هؤلاء بغير التكذيب.. فناسب النظم تعقيب كل آية بما يناسب مرتكب من تقدم فيها»[110].

خامساً: وضع المفرد بدل المثنى

من المواضع التي ذكرها العلماء لأجل رعاية الفاصلة، هو الاستغناء بالإفراد عن التثنية[111] واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾[112] فهم يرون أنَّ مقتضى السياق

(109) سورة الحج، الآيات: 42 ـ 44.

(110) ملاك التأويل ژ/ 568 ـ . وانظر: التعبير القرآني 228.

(111) انظر على سبيل المثال: الاتقان في علوم القرآن 2/ 949، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن 1/ 29.

(112) سورة طه، الآية: 177.

أن يقال: (فتشقيا) ولكن الفاصلة اقتضت ذلك فقال: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾، وقد أنكر الأستاذ عبد الكريم الخطيب ذلك، وأغلظ فيه قائلاً: «ونعيذ بلاغة القرآن أن تركب هذا المركب المضطرب الذي لا يليق بإنسان يدعي لنفسه حظاً من الأدب أن يقبله، وأن يسوّى حساب بلاغته على هذا الوجه»[113] ثم يقول: «والفاصلة هنا في أمكن مكان لها حيث يطلبها المعنى قبل أن يحتاج إليها النظم، وتستدعيها الفاصلة. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يُحذر آدم من أن يختدع للشيطان فيخرجه وزوجه من الجنة ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾. ثم يلفت خطابه (سبحانه) إلى آدم ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ إذ هو الذي سيحمل ثقل الحياة على هذه الأرض، وإن حملتْ زوجه بعض هذا فهي تبع له، وهو الذي سيشقىٰ وحده، أو سيحمل العبء الأكبر من الشقاء إذا هو خرج من هذا النعيم، وهبط إلى الأرض وهذا واقع الحياة الإنسانية يقوم شاهداً لهذا؛ فالرجل هو الذي يقود ركب الحياة، ويحمل النصيب الأوفر من أعباء هذا الركب وأثقاله في الحرب والسلم على السواء»[114].

ويبدو لي أنَّ هذا التوجيه الذي ذكره الأستاذ عبد الكريم الخطيب غير دقيق، والأدق أن نرجع إلى سياق الآيات التي وردت قبل هذه الآية وبعدها، ونرى بوضوح أنَّ القصة في سورة (طه) مبنية على الإفراد، والخطاب موجه فيها إلى آدم، من ذلك:

أ ـ فالعهد إلى آدم، وهو الذي نسي، ولم يجد له عزماً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[115].

ب ـ وأمر السجود كان لآدم فقط، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾[116].

ج ـ وكان الخطاب لآدم وحده، بأن له في الجنة ألا يجوع ولا يعرى ولا يظمأ

(113) إعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب 220.
(114) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
(115) سورة طه، الآية: 115.
(116) سورة طه، الآية: 116.

ولا يضحى، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[117].

د ـ والشيطان وسوس إلى آدم وحده، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[118].

هـ ـ ثم يذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ: العصيان لآدم وحده، قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[119].

و ـ ثم اجتباه ربه، والتوبة كانت له وحده، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[120].

فالخطاب ـ كما ترى ـ إلى آدم وحده، والقصة مبنية على الإفراد، قال الفرّاء: «ولم يقل: فتشقيا، لأن آدم هو المخاطب»[121]، وقال النحاس: «فتشقى، ولم يقل: فشتقيا، لأن المعنى معروف، وآدم هو المخاطب والمقصود»[122]، وقال القرطبي: «فتشقى يعني أنت وزوجك لأنهما في استواء العلة واحد، ولم يقل: فتشقيا، لأن المعنى معروف، وآدم عليه السلام هو المخاطب، وهو المقصود»[123]، وأظنني الآن في غنى عن أن أقول: لو قال (فتشقيا) لقيل: إن السياق يتطلب (فتشقى).

فالإفراد في (تشقى) هو الذي يتطلبه المعنى والسياق، والنسق الإيقاعي جاء تابعاً له، فزاده حسناً على حُسن.

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه، أن قصة آدم وردت في موطنين آخرين من

(117) سورة طه، الآيتان: 118 و119.
(118) سورة طه، الآية: 120.
(119) سورة طه، الآية: 121.
(120) سورة طه، الآية: 122.
(121) معاني القرآن للفراء 2/ 192.
(122) إعراب القرآن للنحاس 3/ 58.
(123) الجامع لإحكام القرآن 11/ 253.

القرآن، ولكن الخطاب فيهما كان موجهاً إلى آدم وزوجه، والآيات مبنية على التثنية، لذا فلم يعدل القرآن من التثنية إلى الإفراد.

أمَّا الموطن الأول فقد ورد في سورة (البقرة) قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ* فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[124].

فالله سبحانه وتعالى يخاطب آدم وزوجه ويجمعهما بالتثنية الواضحة في الخطاب وفي الحديث عما فعلا، انظر إلى قوله: «ولا تقربا» و«فتكونا» «ولم يقل» و«لاتقرب» و«فتكون».

ولا حاجة للتعليق هنا لجلاء الأمر ووضوحه.

والموطن الثاني ورد في سورة الأعراف، قال تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ* فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ* وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ* فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ* قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[125].

فالحديث والخطاب بالتثنية في الآيات: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ و﴿فَكُلَا﴾ و﴿شِئْتُمَا﴾ و﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ و﴿فَتَكُونَا﴾ و﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ و﴿عَنْهُمَا﴾ و﴿سَوْءَٰتِهِمَا﴾ و﴿نَهَىٰكُمَا﴾ و﴿رَبُّكُمَا﴾.

و﴿تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ وهكذا ورد الخطابُ في جميع هذه الآيات على التثنية، فالخطاب لما كان للتثنية لم يعدل التعبير القرآني من التثنية إلى الإفراد[126].

---

(124) سورة البقرة، الآيتان: 35 و36.

(125)سورة الأعراف، الآيات: 19 ـ 23.

(126) انظر: حديث الأحاديث 31 ـ 32.

سادساً: وضع المثنى بدل المفرد:

من المواضع التي ذكرها العلماء لأجل رعاية الفاصلة، هو الاستغناء بالتثنية عن المفرد، وجعلوا من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[127] فقد ذهب الفراء[128] إلى أنه أراد جنة، وثنى لأجل رعاية الفاصلة، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[129]، وقال: والقوافي تحتمل سائر الكلام.

وقد أنكر ذلك قسم من العلماء، منهم ابن قتيبة، جاء في (البرهان في علوم القرآن): «وقد أنكر ذلك ابن قتيبة وأغلظ فيه، وقال: إنما يجوز في رؤوس الآي زيادة هاء السكت أو الألف أو حذف همزة أو حرف فأما أن يكون الله وعد جنتين فيجعلهما جنة واحدة لأجل رؤوس الآي، فمعاذ الله! وكيف هذا وهو يصفهما بصفات الاثنين، قال تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾[130] ثم قال: (فِيهِمَا)[131].

وكذلك أنكر أبو جعفر النحاس، ووصف قول الفراء بأنه أعظم الغلط، جاء في (تفسير القرطبي): «وقال أبو جعفر النحاس: قال الفراء: قد تكون جنة فتثنى في الشعر، وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله عز وجل، يقول عز وجل: ﴿جَنَّتَانِ﴾، ويصفهما بقوله: ﴿فِيهِمَآ﴾ فيدع الأظهر ويقول: يجوز أن يكون جنة ويحتج بالشعر»[132].

ولا شك أن خاتمة الآية ﴿جَنَّتَانِ﴾ تنسجم مع النسق الإيقاعي للسورة، ولكن السياق يقتضي ذلك أيضاً، فالآيات قبلها على التثنية، تتحدث عن الإنس والجن من ذلك:

---

(127) سورة الرحمن، الآية: 46.
(128) انظر معاني القرآن للفراء 3/ 118.
(129) سورة النازعات، الآية: 41.
(130) سورة الرحمن، الآية: 48.
(131) البرهان في علوم القرآن 1/ 65.
(132) الجامع لأ؛كام القرآن 17/ 177.

أ ـ قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ* وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[133].

ب ـ وقال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[134].

ج ـ وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾[135].

د ـ وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾[136].

والآيات التي بعدها على التثنية أيضاً، من ذلك:

أ ـ قال تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾[137].

ب ـ وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾[138].

ج ـ وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾[139].

فضلاً عن ذلك أن الله ذكر قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرة في السورة، وهو خطاب للإنس والجن. إذن الحديث عن جنتين: جنةٍ للإنس وأخرى للجن؛ وعلى ذلك، فالسياق يقتضي أن تكون جنتان، جنة للإنس وأخرى للجنّ.

وقد ذكر المفسرون تأويلات أخرى للآية، منها أن الجنتين بمعنى: البستانين، وقيل: إنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى أخرى[140].

---

(133) سورة الرحمن، الآيتان: 14 و15.

(134) سورة الرحمن، الآية: 31.

(135) سورة الرحمن، الآية: 33.

(136) سورة الرحمن، الآين: 39.

(137) سورة الرحمن، الآية: 48.

(138) سورة الرحمن، الآية: 50.

(139) سورة الرحمن، الآية: 52.

(140) انظر: الجامع لأحكام القرآن 17/ 177.

سابعاً: وضع المفرد بدل الجمع

وهذا موضع آخر ذكره العلماء لأجل رعاية الفاصلة، ألا وهو الاستغناء بالمفرد عن الجمع[141] وجعلوا من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾[142] فقد ذهبوا إلى توحيد (النهر) في الآية، ولم يجمعه مع إن الجنات قبله لأجل النسق الإيقاعي، وتحقيق الانسجام الموسيقي.

نقول: صحيح إن قوله: (نهر) لا (أنهار) ينسجم موسيقياً مع الآيات التي قبلها والآيات التي بعدها[143] ولكن المعنى اقتضى ذلك أيضاً من جهات أخرى.

إن (النَّهَرَ) اسم جنس بمعنى الأنهار، وهو بمعنى الجمع، قال الفراء: «ونَهَرُ معناه أنهار وهو في مذهبه كقوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[144]، وزعم الكسائي أنه سمع العرب يقولون: أتينا فلاناً، فكنا في لحمة ونبيذة، فوحد ومعناه الكثير»[145].

ومن معاني (النَّهَرِ) أيضاً السعة[146] قال أبو حيان: «وَنَهَرٌ: وسعة في الأرزاق والمنازل»[147] وقال الآلوسي: «والمراد بالسعة: سعة المنازل علىٰ ما هو الظاهر، وقيل سعة الرزق والمعيشةِ، وقيل ما يعمها»[148]. فالسعة ههنا عامة تشمل سعة المنازل وسعة الرزق والمعيشة وكل ما يقتضيه تمام السعادة السعة فيه.

ومن معاني (النهر) أيضاً، الضياء قال ابن منظور: «وأما قوله ـ عز وجل ـ

(141) الإتقان في علوم القرآنن 2/ 949، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن 1/ 29.
(142) سورة القمر، الأية: 54.
(143) انظر سورة القمر، الآيات: 52 ـ 56.
(144) سورة القمر، الآية: 54.
(145) معاني القرآن للفراء 3/ 111.
(146) لسان العرب مادة (نهر) 7/ 96، والبرهان في علوم القرآن 1/ 64.
(147) البحر المحيط 8/ 184.
(148) روح المعاني 27/ 135.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾[149] فقد يجوز أن يعني به السعة والضياء، وأن يعني به النهر الذي هو مجرى الماء على وضع الواحد موضع الجميع. . وقيل ﴿جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي في ضياء وسعة؛ لأنَّ الجنة ليسَ فيها ليل إنما هو نورٌ يتلألأ»[150].

وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة فإن المتقين في جنات وأنهار كثيرة جارية، في سعة من العيش والرزق والسكن وعموم ما يقتضي السعة، وفي ضياء ونور يتلألأ، ليس عندهم ليل ولا ظلمة، فانظر كيف جمعت هذه الكلمة هذه المعاني كلها إضافة إلى ما يتقضيه النسق الإيقاعي في السورة، فزاده حسناً على حُسن، بخلاف ما لو قال (أنهار) فإنها لا تعني إلا شيئاً واحداً[151].

ومن وضع المفرد موضع الجمع ، قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[152]. فقد وحّد الدُبُر والقياسُ الأدبار، قال الفراء: «وقال الدبر فوحد ولم يقل الأدبار، وكل جائز، صوابٌ أن تقول: ضربنا منهم الرؤوس والأعين، وضربنا منهم الرأس واليد»[153] وقال في موطن آخر: ﴿لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾[154] وكلٌّ صحيحٌ، وزيادة على النسق الإيقاعي الذي تحققه كلمة (دُبُر) لا (أدبار) إلا أنه «وحد في آية القمر لأنه جعل هزيمتهم كهزيمة رجل واحد تفظيعاً لهزيمتهم»[155].

يقول رضي الدين الاستربادي: «وقد يقع المفرد موقع الجمع كقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[156] وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾[157] وذلك

---

(149) سورة القمر، الآية: 54.
(150)لسان العرب، مادة (نهر) 7/ 96، وانظر معاني القرآن للفراء 3/ 111.
(151) انظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل 170/ 172، والجملة العربية والمعنى 165 ـ 166.
(152) سورة القمر، الآية: 45.
(153) معاني القرآن للفراء 3/ 110.
(154) سورة الانفال، الأية: 15.
(155) الجملة العربية والمعنى 137.
(156) سورة مريم، الآية: 82.
(157) سورة الكهف، الآية: 50.

لجعلهم كذات واحدة في الاجتماع»[158] فانظر إلى الفاصلة كيف جاءت تابعة للمعنى فزادها ذلك حسناً على حسن.

وبعد...

فالفاصلة القرآنية أحد وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ولا تقتصر أسرار الإعجاز في الفاصلة على ما ذكرنا،. فذلك بحر خضم ليس لنا للوصول إلى قراره من سبيل، وإنما هي أمثلة سُقناها لإثبات تبعيّة النسق الإيقاعي في الفاصلة المقتضي المعنى، ولفظ الفاصلة في السياق لا يؤدي معناه لفظ سواه، مع تحقيق الانسجام الموسيقي بهذه الفاصلة، وهذا غاية الإعجاز، ونهاية الحسن في الكلام ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[159].

والحمد لله في الأولى والآخرة، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**، برواية حفص عن عاصم.
- **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي (ت 911هـ) تقديم وتعليق: د. مصطفى ديب البغا، دار الهدى، الجزائر (دون تاريخ).
- **الإعجاز البياني للقرآن**، الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف، القاهرة 1987م.
- **إعجاز القرآن**، القاضي أبو بكر الباقلاني (ت 403هـ)، ط1، عالم الكتب، بيروت 1408هـ ـ 1988م.
- **إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني**، الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، ط1، دار عمار، عمان ـ الأردن 1421هـ ـ 2000م.
- **إعجاز القرآن في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها**، عبد الكريم الخطيب، ط1، مطابع دار الكتاب العربي، مصر 1964م.

(158) شرح الرضي على الكافية 3/ 362.

(159) سورة النساء، الأية: 82.

- **إعراب القرآن**، أبو جعفر النحاس (ت 338هـ)، تحقيق: الدكتور زهير غازي زاهد، ط3، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت 1409هـ ـ 1988م.
- **البرهان في علوم القرآن**، الإمام بدر الدين الزركشي (ت 794هـ)، تحقيق: محمد أبو الفاضل إبراهيم، ط2، دار الجيل، بيروت 1408هـ ـ 1988م.
- **البحر المحيط**، أبو حيان الأندلسي (ت745هـ)، ط2، دار الفكر ـ 1403هـ ـ 1983م.
- **بلاغة الكلمة في التعبير القرآني**، الدكتور فاضل السامرائي، ط1، دار عمار، عمان ـ الأردن 1420هـ ـ 1999م.
- **البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني**، الدكتور: تمام حسان، ط2، عالم الكتب، القاهرة 1420هـ ـ 2000م.
- **البيان والتبيين**، أبو عثمان الجاحظ، (255هـ) تحقيق فوزي عطوي، دار الكتب العلمية، بيروت (دون تاريخ).
- **التعبير القرآني**، الدكتور فاضل السامرائي، ط1، دار عمار، عمان ـ الأردن 1418هـ ـ 1998م.
- **التعريفات**، علي بن محمد الجرجاني (ت 816هـ) تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت 1413هـ ـ 1992م.
- **التفكير اللغوي الدلالي عند علماء العربية المتقدمين**، حمدان حسين محمد، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية العظمى، طرابلس 2000م.
- **الجامع لأحكام القرآن** ، أبو عبد الله القرطبي (ت 671هـ)، ط2، دار الشام للتراث، بيروت ـ لبنان (دون تاريخ).
- **الجملة العربية والمعنى**، الدكتور فاضل السامرائي ـ ط1 ـ دار ابن حزم ـ بيروت ـ لبنان ـ 1421هـ ـ 2000م.
- **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، أحمد الهاشمي ـ ط12 ـ دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان (دون تاريخ).
- **حديث الأحاديث**، الدكتور علي فهمي خشيم، ط1، الدار العربية للكتاب، الجماهيرية العظمى ـ 1398هـ ـ 1978م.
- **دلائل الإعجاز**، عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، تحقيق: الدكتور محمد رضوان الداية والدكتور. فايز الداية، ط1، دار قتيبة ـ 1403هـ 1983م.

- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي (ت 1270هـ)، تحقيق: محمد أحمد الأحد وعمر عبد السلام السلامي، ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1421هـ ـ 2000م.
- **السبعة في القراءات**، ابن مجاهد (ت324هـ)، تحقيق: الدكتور. شوقي ضيف، ط2، دار المعارف، مصر (دون تاريخ).
- **سر الفصاحة** ابن سنان الخفاجي (ت664هـ)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1402هـ ـ 1982م.
- **شرح الرضي على الكافية**، رضي الدين الاستربادي (ت688هـ)، تحقيق: يوسف حسن عمر، بنغازي، جامعة قاريونس 1398هـ ـ 1978م.
- **الصناعتان (الكتابة والشعر)**: أبو هلال العسكري (ت395هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت ـ 1406هـ ـ 1986م.
- **علم الدلالة**، الدكتور أحمد مختار عمر، ط4، عالم الكتب، القاهرة 1993م.
- **فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم**، الدكتور فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف بالإسكندرية، 1991م.
- **فواصل الآيات القرآنية**، كمال الدين عبد الغني المرسي، ط1، نشر وتوزيع المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، 1420هـ ـ 1999م.
- **في البلاغة العربية علم المعاني ـ البيان ـ البديع ـ** ، الدكتور عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت (دون تاريخ).
- **الكتاب** سيبويه (ت180هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون ـ عالم الكتاب ـ بيروت (دون تاريخ).
- **لسان العرب** ابن منظور (ت711هـ) دار صادر ـ بيروت (دون تاريخ).
- **لمسات بيانية في نصوص من التنزيل**، الدكتور فاضل السامرائي، ط1، دار عمار، عمان ـ الأردن 1420هـ ـ 1999م.
- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ابن الأثير (ت637هـ) تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الدار النموذجية، بيروت 1411هـ ـ 1990م.
- **معاني القرآن**، أبو زكريا الفراء (ت207هـ)، ط5، عالم الكتب ـ بيروت 1403هـ ـ 1983م.

- **مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة**، الدكتور ـ محمد بركات حمدي، دار البشير، عمان ـ الأردن ـ 1408هـ ـ 1988م.
- **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، جلال الدين السيوطي (ت911هـ) ضبط وتصحيح أحمد شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان 1408هـ ـ 1988م.
- **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**، أبو جعفرالغرناطي (ت708هـ) تحقيق: الدكتور محمد كامل أحمد، دار النهضة العربية، بيروت 1405هـ ـ 1985م.
- **من أسرار التعبير في القرآن**، الدكتور: عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، الرياض 1402هـ ـ 1982م.
- **من بلاغة القرآن**، أحمد أحمد بدوي، دار النهضة، مصر، القاهرة، (دون تاريخ).
- **من حديث الشعر والنثر**، الدكتور طه حسين، دار المعارف، مصر 1975م.
- **النكت في إعجاز القرآن**، أبو الحسن الرماني (ت384هـ) ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام، ط4، دار المعارف، القاهرة، (دون تاريخ).